نظرات في النفس والحياة

— ٣١ —

نظرات ابن المقفع

للأستاذ ع. ش

قال الأمير شكيب أرسلان في مقدمة (كتاب الدرة اليتيمة) لابن المقفع — وهو الكتاب الذي طبع في مصر وسمي (الأدب الكبير) — «فاخترت طبعها لأنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتاب قبلها ولا بعدها» — والأمير شكيب ارسلان أديب مطلع على كتب الآداب العربية فهو لا يرسل القول من غير تمحيص بعد أن قرأ كتب الجاحظ والماوردي وابن مسكويه وابن حزم وابن عبد ربه وغيرهم، ومن المستطاع العثور على حكمة وبلاغة في كتبهم ولكنها إما مقتبسة من الخطب والأقوال، وإما لأنها مع بلاغتها لا تصل إلى ما تصل إليه حكمة ابن المقفع من الالمام بعادات الناس وطباعهم وأخلاقهم وتزعات نفوسهم وسلوكهم في الحياة مع بلاغة الايجاز ولعل الأمير أرسلان لا ينحو في قوله منحى المقرظين الذين اعتادوا المبالغة والتعميم في كل مدحة، ولعله قارن ووازن وخلص الى هذا الرأي وقد فطن الكتّاب الى تلك الحكمة التي يطربها الأمير شكيب فكان الكتاب في عهد الجاحظ يحاكونها وينسبون مؤلفاتهم إلى ابن المقفع كي تروج كما اعترف الجاحظ نفسه وإلا كان نصيبها الكساد والبوار. أما ترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة من الفارسية فهي تذكرنا قول جوته: «ان المترجم كالخاطبة في البلاد الشرقية تنقل محاسن العروس المحجوبة إلى الفتى الذي يريد أن يتزوجها فتشرفه تلك المحاسن» — فالمترجم شريك المؤلف يعرض بضاعته أحسن عرض بما يناسبها في اللغة التي يترجم إليها وإلا ما أجاز ابن المقفع لنفسه أن يضم إلى كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير أقوالاً ذكرها في كتاب كليلة ودمنة ومعاني كأنها من معانيه ومن أجل ذلك يقول في كتاب الأدب الصغير: «إذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وان يقولوا قولاً بديعاً فليعلم الواصفون المخبرون ان أحسنهم وان أحسن وأبدع ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً

وزبرجداً ومرجاناً فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ووضع كل فص موضعه وجمع الى كل لون شبهه بما يزيده بذلك، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة وسلكت سبلاً جعلها الله ذللاً فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً إليها مذكوراً به أمرها وصنعتها — ويبقى بعد ذلك ما بين الصائغ الصناع والالمعي النجيب وبين الساطي الذي يسرق الكلام كما هو أو يذهب بمحاسنه فهمه».

وابن المقفع على ما في قوله من حكمة وإدراك للأمور لم يعصم في معاملة السلطان الأكبر وهو الخليفة المنصور ولا في معاملة عامله على البصرة وهو سفيان بن معاوية بن يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة من هنات تخالف ما رسم لمعاشر السلطان ومخالط الوالي وجليسه من حكمة وأدب فلم ينتفع بحكمه، وفي قوله إن على من يريد أن يكون إماماً أن يعظ نفسه ويتعظ قبل عظاته وعظ الناس. وقوله إن العالم يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه ولا تكون غايته اقتناء العلم لمعاونة غيره فحسب. فكان مثله مثل فرنسيس باكون الانجليزي (لورد باكون) فانه يقول: «إن على القاضي أن لا يتخذ القضاء شباكاً وحبائل يقتنص بها الناس»، ثم يكون من أواخر القضاة الانجليز إن لم يكن آخرهم — الذين استخدموا التعذيب وسيلة لانتزاع الاعتراف من نفوس المتهمين ويعظ الناس بالنزاهة ثم يأخذ الرشوة من المتقاضين وينصح المفكرين بالاستنتاج المؤسس على المشاهدة الصحيحة، دون التعلق بالأمور النظرية من غير بحث ثم يرفض كثيراً من الحقائق العلمية الحديثة التي وصل إليها الباحثون بالطريقة التي حث عليها فكانت حكمة باكون في كل هذه الأمور لغيره لا لنفسه كما كانت حكمة ابن المقفع، وعلى من يعيبه ان يبحث أولا في قوله وعمله، فان حكمة أكثر الناس لغيرهم لا لنفوسهم في كثير من الأمور. ويذكرنا ابن المقفع باكون فيما يولع به كلاهما من التشبيهات والأمثال والقصص التي يجلو بها حكمته، وكانت هذه الطريقة محبوبة شائعة في الأدب الانجليزي في عهد الملكة اليصابات وجيمس الأول، ومن أوجه الشبه بينهما ان كليهما مولع بالأساطير التي فيها حكمة ومغزى.

وألف باكون كتابه في أساطير الاغريق وسماه (حكمة القدماء) وأوضح فيه ما خلف أساطيرهم من حكمة بارعة، كما ترجم عبد الله بن المقفع عن الفارسية أساطير الهند وحكمتهم في كتاب (كليلة ودمنة) وكل من ابن المقفع وباكون ماهر في بلاغة الايجاز. وقد يذكرنا ابن المقفع في وصف آداب الملوك أديباً انجليزياً آخر وهو لورد تشسترفيلد، فان هذا كان همه وصف آداب الملوك كي يهذب ابنه ويصقله. أما أدباء اللغة الغربية فلعله لا يقاربه

ويقرن به إلا الجاحظ على ما في الجاحظ من مدح للشيء ومدح لضده، وكتب الجاحظ عالم في الموضوعات المتنوعة فلا غرابة اذا اختلف أسلوبه في كتاب عما هو في كتاب آخر فنرى أسلوب الجاحظ في كتاب (مناظرة الربيع والخريف) أكثره سجع ومزاوجة وموازنة ومقابلة ومرادفة، بينما نرى في كتاب (الدلائل والاعتبار) يكاد يخلو من هذه الامور ويصدق فيه قول بديع الزمان الهمذاني إنه منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله » أما عبد الله بن المقفع فأسلوبه على وتيرة واحدة حتى قيل إنه السهل الممتنع وفي بعض الاحيان يستعمل المزاوجة والموازنة ولكن لا كاستعمال الجاحظ لها فان الجاحظ يطيل فيها ويكثر وهي في أسلوب الجاحظ لها وقع السجع في الاذهان حتى ان من لا يلتفت قد يظنها سجعاً . والذي يمتاز به ابن المقفع بلاغة الايجاز ولا نعني أن الجاحظ ليس له من الحكم الجوامع ولكن أكثر أقوال ابن المقفع ولا سيما في كتابي (الادب الكبير) و (الادب الصغير) من جوامع الكلم التي تجمع الحكمة في بلاغة وايجاز مع استيفاء المعنى، أو ما يكاد يكون استيفاءه وينبغي أن نتذكر أن ابن المقفع كان منكوباً والمنكوب مخذول في دعاوي الناس مغبون في أقوالهم ومصاب بأكاذيبهم وأباطيلهم ، فلا تستطيع الاجيال التي بعد عهده أن تميز الحق من الباطل في كثير مما ينحل من القول وما ينسب إليه من الفعل، إذ هو مهتضم بعد النكبة لا يجد من يدافع عنه بتمييز الصواب فيما ينسب إليه حتى ولو كان مشهوراً محسوداً يحتذي الناس قوله . ولا مناص لنا على هذا الاساس من القول إن حكمته لم تعصمه من الزلل والهلاك ولا عجب أن كاتباً قديراً مثله كان يستعصي عليه أن يجمع بين شدة المواثيق ولين الفظ والتحايل ، لذلك في كتابه الذي طلب فيه الأمان لعم المنصور الذي ثار عليه وهزم ولا نظن انه كان يجهل ما في بعض أقواله من عبارات يتأذى بها الخليفة ولا يتسامح فيها ، حتى ولو كتبها على لسان أصحابه مثل قوله إذا غدر بعمه (فنساؤه طوالق والمسلمون في حل من بيعته) ولكن المرء قد يجمع الى الحكمة والمروءة رعونة الطبع وهذا كان داءه إذا صح كل ما ينسب اليه مثل تطاوعه بالسخر والسفه على حاكم البصرة فكان إذا دخل عليه وسلم قال السلام عليكما يعني هو وأنفه ، وأنزل أنفه منزلة الانسان لانه كان كبيراً ، وإذ قال حاكم البصرة : ما ندمت على سكوت قط : قال ابن المقفع : « الخرس زين لك فكيف تندم عليه » يعني أنه كان عيياً وأنه لا مدعو الى الحيرة أن يكون الحاكم مهزلة لرجل مثل ابن المقفع مهما يكن أثيراً عند أعمام الخليفة . وعندما أمر المنصور بقتله قتله هذا الحاكم شر قتلة . ومن الدلائل على رعونة طبعه فيما يحكى عنه أنه لما اعتزم الاسلام وكان مجوسي الأصل

وحضر طعام الأمير جعل يزمزم على الطعام على عادة المجوس فلِيمَ في ذلك فقال: أحببت أن لا أبيت على غير دين وهو إما انه اقتنع بالاسلام حتى أراد أن يظهر اسلامه في قلبه فهو مسلم بعقله وقلبه فلا معنى لقوله وإما أنه كان غير مقتنع وكان اسلامه نفاقاً وقد اتهم بذلك واتهم بالزندقة ومن رأيي أن من حماقة الطبع أيضاً الجملة المشهورة التي يروونها عنه الكتاب أي قوله «شربت الخطب رياً ولم أضبط لها روياً ففاضت ثم فاضت فلا هي نظاماً وليس غيرها كلاماً» وهذا سجع شبيه بسجع الكهان ثم لماذا قصر شربه على الخطب دون غيرها من سائر أنواع النثر. نعم ان لبلاغة نشوة ولكنه في بعض قوله ينهى القارىء عن جميع أنواع السكر سكر الشباب وسكر العلم وسكر الذكاء وسكر الجاه وسكر القدرة وسكر المال وهي في بعض قوله يوضح ما في مدح النفس من سماجة ومما يروى بصدد ذلك أن الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع العروض سُئل عن ابن المقفع فقال: علمه أكثر من عقله وسُئل ابن المقفع عن الخليل فقال عقله أكثر من علمه. ومن الغريب أن المرء عندما يقرأ كتبه ينسى رعونة طبعه أو يكاد ينسى فيما نسب اليه من القصص التي تدل على ذلك ويعترف انه أكبر كتاب العربية في جوامع الكلم وبلاغة الايجاز والحكمة المؤسسة على ما يشاهد من عادات الناس وطباعهم وأخلاقهم التي تخبر عنها أعمالهم في ايجاز واستيفاء للمعنى أو شبه استيفاء، وهذا هو معنى تقريظ الأمير شكيب أرسلان الذي ذكرناه وفيما يلي بعض نظراته مع شيء من التعليق على بعضها: —

(١) لا يمنعك صغر شأن أمره من اجتناء ما رأيت من رأيه صواباً والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريماً فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها.

(٢) إذا كنت لا تعمل من الخير الا ما اشتهيته ولا تترك من الشر الا ما كرهته فقد اطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من أزمتك فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من عمل الخير فيكرهه اليك وفيما تكره من عمل الشر فيحببه اليك، ولكن ينبغي لك في حب ما تحب من الخير التحامل والصبر على ما يستثقل منه، ويلقي لك في كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يحب منه.

(٣) انه تكاد تكون لكل رجل غالبة حديث إما من بلد من البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس أو وجه من وجوه الرأي أو ما هو شبيه بذلك، وعندما يعزم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك في كل موطن.

[البحث تتمة]